من أعلام الحركة الوطنية الليبية

الشيخ الجليل عمر المختار(شيخ المجاهدين وأسد الصحراء)

مولده ونسبه ونشأته:

ولد الشيخ الجليل عمر المختار بالبطنان في الجبل الأخضر من أبوين صالحين عام 1862 وقيل 1858م، نشأ وترعرع في بيت عز وكرم، تحيط به شهامة المسلمين وأخلاقهم، وصفاتهم الحميدة المستمدة من تعاليم الحركة السنوسية، توفي والده مختار بن عمر في رحلته لآداء فريضة الحج، فتكفل شقيقه بتربية ولديه عمر ومحمد، وتولى رفيقه حسين الغرياني رعايتهما محققا رغبة والدهما، فأدخلهما مدرسة القرآن الكريم بالزاوية، ثم ألحق عمر المختار بالمعهد الجغبوبي لينضم إلى طلبة العلم من أبناء الإخوان والقبائل الأخرى.

لقد ذاق عمر المختار مرارة اليتم في صغره، فكان هذا من الخير الذي أصاب قلبه المليء بالإيمان، ظهر عليه نبوغ منذ صباه مما جعل شيوخه يهتمون به في معهد الجغبوب الذي كان منارة للعلم ، حيث مكث ثمانية أعوام ينهل من العلوم الشرعية المتنوعة: كالفقه والحديث والتفسير، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم: السيد الزروالي المغربي، والسيد الجواني، والعلامة فالح بن محمد بن عبد الله الظاهري المدني وغيرهم كثير، وشهدوا له بالنباهة ورجاحة العقل ومتانة الخلق، وحق الدعوة، وكان مخلصا في عمله متفانيا في أداء ما عليه، فقد اشتهر بالجدية والحزم والاستقامة والصبر، فأكبر الشيخ محمد المهدي صفاته وما يتحلى به من خلال، وأصبح على إلمام كبير بشؤون البيئة التي تحيط به، وعلى معرفة واسعة بالأحداث القبلية وتاريخ وقائعها وتوسع في معرفة الأنساب والارتباطات التي تصل هذه القبائل بعضها ببعض، وبتقاليدها وعاداتها ومواقعها، كما تعلم وسائل فض الخصومات البدوية، وكان خبيرا بمسالك الصحراء، وكان يعرف أنواع النباتات وخصائصها على مختلف أنواعها، وكان على دراية بالأدواء التي تصيب الماشية ببرقة ومعرفة بطرق علاجها، وكان يعرف سمة كل قبيلة، فهذه المعلومات تدل على ذكاء عمر المختار وفطنته منذ شبابه. كان شديد الحرص على أداء الصلوات وقراءة القرآن، فيختم المصحف كل أسبوع منذ أن قال له الإمام محمد المهدي السنوسي(يا عمر وردك القرآن). فقد كان يهتم بزاده الروحي، ما يدل على قوة الإيمان، وتعمقه في النفس.

شجاعته وكرمه:

إن هذه الصفة الجميلة تظهر الجميلة تظهر في سيرة عمر المختار منذ شبابه، ففي عام 1894 تقرر سفر عمر المختار على رأس وفد إلى السودان يضم كلا من السيد خالد بن موسى، والسيد محمد المسالوسي، وقرجيلة الدبار الزوي أحد أعضاء زاوية واو بفزان، وفي الكفرة وجد الوفد قافلة تتأهب للسفر إلى السودان فانضم الوفد إلى هؤلاء التجار، وفي طريق تمكن عمر

المختار من التخلص من أسد كانت القوافل تسترضيه كلما مرت بفريسة، هذه الحادثة تدلنا على شجاعته. كما هذه الصفة المتميزة في جهاده في تشاد ضد فرنسا، وفي ليبيا ضد ايطاليا.ويحفظ لنا التريخ رسالة للشيخ عمر المختار ردا على رسالة من الشارف الغرياني الذي أكرهته إيطاليا ليتوسط في الصلح مع عمر المختار وإيقاف الحر، ومما جاء فيه(...ولانخاف طيارات ومدافعه ودباباته وجنوده من الطليان والحبش والسبايس، ولا نخاف حتى من السم الذي وضعوه في الآبار ووضعوه على الزروع النابتة في الأرض نحن من جنود الله وجنود الله هم الغالبون). لم تكن همة عمر المختار منصرفة إلى جمع المال والثروة والغنى وإن كان قد ورث عن والده بعض الماشية إلا أنه تركها في رعاية بعض أقاربه في القبيلة وترك أرضه وموطنه منذ أن كان عمره 16 عاما، وكان طيلة فترة إقامته في معهد الجغبوب تتكفل إدارة المعهد بمصروفاته، وبعد أن تزوج وكون أسرة أصبح مورد رزقه يتحصل عليه من نتاج الحيوانات القليلة، ولم يكن يوما من الأيام متفرغا لجمع المال، وإنما عاش للعلم والدعوة والجهاد، وقضى حياته على القناعة والرضى والكفاف.

***الدعوة والجهاد قبل الاحتلال الإيطالي:**

تفوق عمر المختار على أقرانه بصفات كحسن الخلق ورجاحة العقل وحب الدعوة، فقدمه محمد المهدي على غيره، واصطحبه معه في رحلته الشهيرة من الجغبوب إلى الكفرة عام 1895، وفي عام 1897 أصدر محمد المهدي قرارا بتعيين عمر المختار شيخا لزاوية القصور بالجبل الأخضر قرب المرج، فسار في الناس سيرة حميدة، فظهر في شخصيته أخلاق الدعاة من حلم وتأت، وصبر ورفق، وعلم وزهد. إن الفترة التي قضاها في زاوية القصور تدلنا وتشهد لنا على أعماله الجليلة كداعية رباني يدعو إلى الإسلام ونشره بالفكرة والإقناع والتوجيه، لقد كان حريصا على تعلم العلم والعمل به وتعليمه، وعندما زحف الاستعمار الفرنسي مع كتائب الحركة السنوسية المجاهدة في تشاد نظمت الحركة السنوسية نفسها وأعدت للجهاد عدتها، حيث قارع عمر المختار الاستعمار الفرنسي مع كتائب السنوسية، وبذل ما في وسعه حتى لفت الأنظار إلى حزمه وعزمه وفراسته وبعد نظره وحسن قيادته، فقال عنه محمد المهدي السنوسي(لوكان لدينا عشرة مثل المختار لاكتفينا). وبقي عمر المختار في التشاد يعمل على نشر الإسلام ودعوة الناس وتربيتهم، إلى جانب جهاده ضد فرنسا، فحمل الكتاب الذي يهدي بيد والسيف الذي يحمي باليد الأخرى، وظهرت منه شجاعة وبطولة وبسالة نادرة في الدفاع عن ديار المسلمين...

في عام 1906 رجع عمر المختار بأمر من القيادة السنوسية إلى الجبل الأخضر ليستأنف عمله في زاوية القصور، لكن ذلك لم يستمر طويلا، فقد بدأت المعارك بين الحركة السنوسية والبريطانيين في منطقة البردي و مساعد والسلوم على الحدود المصرية. ولقد شهد عام عام1908 أشد المعارك ضراوة التي انتهت بضم السلوم إلى الأراضي المصرية تحت ضغوط بريطانيا على الدولة العثمانية، وعاد عمر المختار إلى زاوية القصور وبرزت شخصيته بين

زملائه مشايخ الزوايا، وبين شيوخ وأعيان القبائل، ولدى الدوائر الحكومية العثمانية... وكانت تربطه صلات مع عدد كبير من زعماء وأعين القبائل في برقة، وكذلك زعماء المدن... وارتبطت علاقاته الأخوية مع شيوخ الزوايا كالسادة السنوسي الأشهب شيخ زاوية مسوس، وعمران السكوري شيخ زاوية المرج، وعبد ربه بوشناف الشيخي، والحسن الغماري شيخ زاوية دريانة .

*** الشيخ عمر المختار في معاركه الأولى ضد إيطاليا:** عندما اندلعت الحرب الليبية الإيطالية، سارع عمر المختار إلى التعبئة للجهاد، وتحرك بأزيد من ألف مقاتل رفقة أحمد العيساوي، حيث انضم إلى معسكر المجاهدين و شرعوا في مهاجمة العدو ليلا ونهارا، وكانت غنائمهم من العدو تفوق الحصر. فقد خاض عمر المختار معركة السلاوي 1911، وأظهر فيها من ضروب البطولة والشجاعة ما نال إعجاب الضباط الأتراك.وكان قدومه إلى معسكرات المجاهدين مشجعا وباعثا للروح المعنوية في قوة خارقة. وكان الشيخ عمر المختار من المقربين للشيخ أحمد الشريف الحسيني، وبعد هجرته لازم عمر المختار محمد إدريس وقام بواجباته خير قيام ، وبعد هجرة الأمير غلى مصر تولى أمر القيادة العسكرية بالجبل الأخضر، وأخذ في تهيئة النفوس لمجابهة العدو وبدأ جولاته في أنحاء المنطقة للاتصال بالأهالي وزعمائهم، بل وبالأفراد كخطوة أولى للعمل الجديد الشاق، وأقدم على فتح باب الجهاد، فأقبل أبناء الجبل بقلوب متلهفة على مجابهة العدو، وكان سمو الأمير إدريس قد وصل إلى مصر(يناير 1923)، وما كاد السيد عمر ينتهي من جولته هذه ويطمئن للنتائج حتى قرر الالتحاق بسمو الأمير في مصر ليعرض عليه ويتلقى التوجيهات منه اللازمة.

*** قيادة عمر المختار للجهاد الليبي:**

تسلم شيخ المجاهدين عمر المختار حركة المقاومة الشعبية في برقة؛ بعد سفر محمد إدريس السنوسي إلى مصر للعلاج ، وفي تلك الفترة وصل الحزب الفاشي إلى السلطة في إيطاليا، وقرر إخماد المقاومة الليبية بكل وسائل العنف، ومختلف أنواع الإرهاب. ومنذ أن تسلم عمر المختار القيادة، قام بتنظيم الأدوار(المعسكرات)، وجعل لكل منها قائدا ومجلس قيادة مستقلة عن غيرها، وإدارة مدنية، ولكنها جميعا تخضع لقيادته. وبعد ذلك سافر المختار لمصر لطلب المساعدة المالية والعسكرية من الإخوة العرب والمسلمين هناك، وفي مصر قابل عمر المختار إدريس السنوسي، ليعرض عليه ويتلقى التوجيهات منه اللازمة، وطلب منه مد يد المساعدة المالية والعسكرية، ولكن الأخير يبدو أنه رضخ لضغوط الحكومتين المصرية والإيطالية بعدم مزاولة أي نشاط سياسي، وبالتالي تخلى عن ساحة المعركة مفضلا اللجوء إلى مصر، والعيش فيها بسلام...وفي طريق العودة إلى ليبيا، نصبت القوات الإيطالية كمينا لعمر المختار ورفاقه عند بئر الغبي، حيث جرت معركة عنيفة في 1923/04/23، انتصر فيها المجاهدون، وأبادوا معظم القوات الإيطالية. وبعد عودته تابع عمر المختار قيادته للجهاد، من خلال نظام الأدوار الذي لعب دورا هاما في جهاد العرب الليبيين.

كان نظام الأدوار ظاهرا في جهاد العرب الليبيين منذ بداية الغزو الإيطالي لليبيا، ولكنه استخدم بشكل أكثر تنظيما تحت قيادة عمر المختار منذ عام 1922، وكانت الأدوار تضم عددا كبيرا من القبائل الليبية المجاهدة، فقد شكلت كل قبيلة دورا، كدور العبيد الذي تشكل من قبائل العبيدات ودور البراعصة الذي تشكل من قبيلة البراعصة، ودور العواقير الذي تشكل من قبيلة العواقير...وغيرهم من الأدوار. وكان مجلس أعلى يتولى قيادة هذه الأدوار برئاسة عمر المختار، يتكون المجلس من المجاهدين: يوسف بورحيل، حسين الجويفي، الفضيل بوعمر، قطيط الحاسي، موسى غيطان، محمد السركسي، محمد مازق، رواق درمان، جربوع سويكر. وقد تميزت ظاهرة الأدوار في الجهاد الليبي بأنها كانت تعتمد على نفسها في توفير السلاح، والتموين، وكل المستلزمات الأخرى، كما أنه لم تكن هناك شروط معينة للالتحاق بهذه الأدوار.

لقد قدم عمر المختار ورفاقه المجاهدون من مختلف الأدوار، وأروع صور البطولة والتضحية في سبيل الله والوطن الليبي، وخاضوا معارك بطولية ومشرفة، ألحقت أفدح الخسائر بالقوات الإيطالية في الفترة بين الأعوام 1922-1931، وبدأ الجهاد الشاق والطويل الذي استمر متصلا ومن غير هوادة حوالي ثمانية أعوام.وكان عامي 1924، 1925م قد شهد مناوشات عدة ومعارك دامية، ووسع المجاهدون نشاطهم العسكري في الجبل الأخضر، ولمع اسم عمر المختار كقائد بارع يتقن أساليب الكر والفر ويتمتع بنفوذ عظيم بين القبائل، ومن أهم تلك المعارك، كانت معركة الرحيبة التي خاضها المجاهدون بقيادة عمر المختار في الجبل الأخضر يوم 28 مارس 1927، فقد بلغت قوة المجاهدين حوالي 350 رجلا، وبلغت قوة الإيطاليين حوالي 12 ضابطا و744 جنديا، مع فارق العدة والعتاد بين الجانبين. وقد دارت معركة غير متكافئة بين الطرفين، حقق فيها المجاهدون نصرا كبيرا على القوات الإيطالية، وقد اعترفت إيطاليا بالهزيمة، وبخسائرها التي بلغت 340 جنديا ايطاليا.

لقد كانت المعارك التي خاضها عمر المختار والمجاهدون الليبيون كثيرة ولا مجال لحصرها، ولكن بشكل عام فقد خاض المختار ورافقه حوالي 74 معركة ضد القوات الإيطالية، ومئات الاشتباكات التي وصلت 260 اشتباكا. ولقد حاولت إيطاليا بكل السبل والوسائل، بالترغيب والترهيب، أن توقف وتثني عمر المختار ورفاقه عن المضي في طريق الجهاد، فعرضت الأموال الطائلة ولكنه أبى، وهنا أسوق جواب عمر المختار للإيطاليين أثناء اجتماع جرى بينهم بالقرب من منطقة المرج بالجبل الأخضر، حيث عرضت إيطاليا عليه راتبا شهريا يقدر ب50ألف ليرة مقابل أن يتوقف عن القتال، فرد عليهم:(إنني ما قبلت هذا الاجتماع مع الوفد الإيطالي لأستمع لهذه المهازل، ولست أحارب الإيطاليين من أجل الوصول لهذه الترهات، إن موقف المجاهدين يغاير موقف إيطالي، من أن المسألة تقبل الجدل أو المساومات، إنها فوق ذلك، إنها مسألة حقوق أمة كاملة، ضحت بأكثر من نصف عددها، وفقدت الكثير من مواطنيها، وديست كرامتها، وجرحت في دينها، إن البحث يجب أن يكون حول قضيتنا الوطنية كاملة غير منقوصة، وإلا فإنني سأضطر إلى إنهاء الاجتماع الذي ما كنت أتصور أنه سيكون هكذا).

لقد استمر عمر المختار ورفاقه في الجهاد من أجل حرية وطنه وشعبه، إلى أن أسر هذا القائد العظيم عندما تعثرت فرسه في إحدى المعارك بجندوبة في الجبل الأخضر، فسقط عنها، فتعرف عليه أحد المرتزقة، وأفشى سره، وألقت القوات الإيطالية القبض عليه، وحاكمته يوم 15 سبتمبر 1936 محاكمة صورية شكلا وموضوعا ، و وبعد استجوابه ومناقشته ؛ أصدرت بحقه حكم الإعدام، وكان رده على الحكم:(الحكم حكم الله، لا حكمهم المزيف، انا لله وانا إليه راجعون). وفي صبيحة يوم الأربعاء 16 سبتمبر 1931 عند التاسعة صباحا، نفذ الطليان في (سلوق) جنوب مدينة بنغازي حكم الإعدام شنقا في شيخ المجاهدين وأسد الجبل الأخضر بعد جهاد طويل ومرير. وقد سمعه بعض المقربين منه أنه صعد سلالم المشنقة وهو يؤذن بصوت هادئ أذان الصلاة، وعندما وضع الجلاد حبل المشنقة في عنقه كان يردد قوله تعالى:(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) **' الفجر:27-28'** .

لقد كان عمر المختار من أكبر المجاهدين، وصدق من سماه (شيخ المجاهدين وأسد الصحراء)، فقد كان أكبر المجاهدين جهادا وسنا، وأسدا لا تثنيه الصعاب ولا الشدائد، لقد ترك عمر المختار صورة وذكرى حية خالدة عن جهاد الشعب الليبي الشقيق، وقد رثاه العديد من فحول الشعراء، وعلى رأسهم شوقي، حيث قال:

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادي صبح مساء

يا ويحهم نصبوا منارا من دم يوحي إلى جيل الغد البغضاء.

ما ضر لو جعلوا العلاقة في غد بين الشعوب مودة وإخاء.

ويقول شاعر القطرين خليل مطران:

أبيت والسيف يعلو الرأس تسليما وجدت بالروح جود الحر أن ضيما

لله يا عمر المختـــار حكـــمته في أن تلاقي ما لاقيت مظلوما

أن يقتلوك فما أن عجلوا أجلا قد كان مذ كنت مقدورا ومحتوما

إن أعداءه الأوربيين أعجبتهم سيرته البطولية والكفاحية والجهادية، فهذه صحيفة التايمز البريطانية في مقال نشرته في 17 سبتمبر 1931 تحت عنوان نصر إيطالي:(حقق الإيطاليون انتصارا خطيرا ونجاحا حاسما في حملتهم على المتمردين السنوسيين في برقة، فلقد أسروا وأعدموا الرجل الرهيب عمر المختار شيخ القبيلة العنيف الضاري..). وقد وصفه أحد الايطاليين قائلا: (كان عمر المختار مخلصا وذكيا، وكان عقل الثورة وقلبها ببرقة). وباستشهاد عمر المختار انتهت مرحلة مهمة من مراحل تاريخ الجهاد الليبي.